معهد الميراث النبوي

اسْمُ الْمَادَّةِ

الْعَقِيدَةُ

الدَّرْسُ الْخَامِسُ مِنْ:

شَرْحِ (الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ وَأَدِلَّتُهَا)

مُؤَلِّفُ الْمَتْنِ:

الْإِمَامُ الْمُجَدِّدُ/مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ –رَحِمَهُ اللهُ–

اسْمُ الشَّارِحِ:

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الدُّكْتُور/أَحْمَدَ بْنِ عُمَرَ بَازمُول –حَفِظَهُ اللهُ–

تَحْتَ إِشْرَافِ:

فَرِيقِ عَمَلِ مَعْهَدِ الْمِيرَاثِ النَّبَوِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أَلَا وَإِنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ كَلاَمُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ سَبَقَ مَعَنَا فِي الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي تَكُونُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالَّتِي عَدَّدَهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مُبَيِّنًا أَدِلَّتَهَا مُبَيِّنًا أَنَّ صَرْفَهَا لِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ، كَمَا نَعْلَمُ جَمِيعًا أَنَّ هَذِهِ الْأُصُولَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي ذَكَرَهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- هِيَ مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ وَمَعْرِفَةُ الْعَبْدِ دِينَهُ وَمَعْرِفَةُ الْعَبْدِ نَبِيَّهُ.

وَقَدْ ذَكَرَ كَمَا مَرَّ مَعَنَا سَابِقًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَصْلِ الْأَوَّلِ فِي مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ ذَكَرَ كَيْفَ عَرَفَ الْعَبْدُ رَبَّهُ؟!

- وَمَنْ هُوَ رَبُّهُ؟!

رَبُّهُ الَّذِي رَبَّاهُ وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ فَهُوَ مَعْبُودُهُ لَيْسَ لَهُ مَعْبُودٌ سِوَاهُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَأَيْضًا ذَكَرَ كَيْفَ عَرَفَ الْعَبْدُ رَبَّهُ؟!

فَعَرَفَهُ بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، ذَكَرَ الدَّلِيلَ عَلَى ذَلِكَ.

ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ الرَّبَّ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- هُوَ الْمَعْبُودُ، وَكَمَا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ-رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: الْخَالِقُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ؛ فَالَّذِي خَلَقَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالَّذِي خَلَقَنَا وَخَلَقَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا وَالَّذِي جَعَلَ لَنَا الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَنَا هُوَ الْمَعْبُودُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِهَذِهِ الْعِبَادَاتِ.

ثُمَّ كَمَا مَرَّ مَعَنَا بَيَّنَ -رحمه الله تعالى- أَنْوَاعَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ، وَأَيْضًا الدُّعَاءُ وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ، وَقَدْ مَرَّ مَعَنَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالدُّعَاءِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالْخَوْفِ.

الْمَتْنُ

قَالَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-:

«وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَالْخُشُوعِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾.

وَدَلِيلُ الْإِنَابَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾.

وَدَلِيلُ الِاسْتِعَانَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ».

وَدَلِيلُ الِاسْتِعَاذَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

وَدَلِيلُ الِاسْتِغَاثَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾.

وَدَلِيلُ الذَّبْحِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ❁ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾، وَمِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ».

وَدَلِيلُ النَّذْرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾».

الشَّرْحُ

وَالْيَوْمَ –إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى– نَدْخُلُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالرَّجَاءِ حَيْثُ قَالَ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى– مُبَيِّنًا دَلِيلَ الرَّجَاءِ فَقَالَ: وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

الرَّجَاءُ عِبَادَةٌ قَلْبِيَّةٌ، وَالرَّجَاءُ هُوَ رَغْبَةُ الْقَلْبِ وَطَمَعُهُ فِي الْحُصُولِ عَلَى شَيْءٍ مَرْجُوٍّ، يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ: «حَقِيقَةُ الرَّجَاءِ: الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ فَيَفْعَلُ مَا أُمِرَ بِهِ عَلَى نُورِ الْإِيمَانِ رَاجِيًا لِلثَّوَابِ وَيَتْرُكُ مَا نُهِيَ عَنْهُ عَلَى نُورِ الْإِيمَانِ خَائِفًا مِنَ الْعِقَابِ».

وَالرَّجَاءُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: رَجَاءُ رَجُلٍ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ فَهُوَ رَاجٍ ثَوَابَهُ.

النَّوْعُ الثَّانِي: وَرَجُلٌ أَذْنَبَ ذُنُوبًا ثُمَّ تَابَ مِنْهَا فَهُوَ رَاجٍ مَغْفِرَةَ اللهِ تَعَالَى وَعَفْوَهُ وَإِحْسَانَهُ وَجُودَهُ وَحِلْمَهُ وَكَرَمَهُ.

كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّم الْجَوْزِيَّة –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–، فَهَذَانِ النَّوْعَانِ مِنَ الرَّجَاءِ: رَجَاءِ رَجُلٍ عَمِلَ بِطَاعَةٍ، وَرَجَاءِ رَجُلٍ أَذْنَبَ ذُنُوبًا ثُمَّ تَابَ، فَمَنْ عَمِلَ بِالطَّاعَةِ يَرْجُو ثَوَابَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، وَمَنْ عَمِلَ بِالْمَعْصِيَةِ يَرْجُو مَغْفِرَةَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– وَعَفْوَهُ وَإِحْسَانَهُ، هَذَانِ النَّوْعَانِ هُمَا نَوْعَانِ مَحْمُودَانِ.

النَّوْعُ الثَّالِثُ: رَجَاءُ رَجُلٍ مُتَمَادٍ فِي التَّفْرِيطِ وَالْخَطَايَا، يَرْجُو رَحْمَةَ اللهِ بِلاَ عَمَلٍ، فَهَذَا هُوَ الْغُرُورُ وَالتَّمَنِّي وَالرَّجَاءُ الْكَاذِبُ.

كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ الْجَوْزِيَّة –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «وَالْعَبْدُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ أَنْ يَسِيرَ وَيَجْمَعَ فِي سَيْرِهِ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْمَحَبَّةِ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، فَيَجْمَعُ بَيْنَ الْمَحَبَّةِ وَالرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَلَا تَحْصُلُ الْعُبُودِيَّةُ لِلَّهِ إِلَّا بِهَذِهِ الثَّلاَثِ؛ فَالرَّجَاءُ عِبَادَةٌ قَلْبِيَّةٌ هَذِهِ الْعِبَادَةُ لَهَا مَكَانَتُهَا وَلَهَا عَظِيمُ أَثَرِهَا عَلَى الْعَبْدِ».

يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ الْجَوْزِيَّة: «قُوَّةُ الرَّجَاءِ عَلَى حَسَبِ قُوَّةِ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ يَعْنِي كُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ أَعْرَفَ بِاللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– وَبِأَسْمَائِهِ

وَصِفَاتِهِ كُلَّمَا تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهِ وَكُلَّمَا رَجَاهُ وَكُلَّمَا ازْدَادَ رَجَاؤُهُ لِلَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–».

لِذَلِكَ الشَّيْخُ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى– ذَكَرَ الرَّجَاءَ وَنَصَّ عَلَيْهِ فَقَالَ: وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

{فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ}؛ أَيْ: أَنْ يَلْقَى اللهَ –عَزَّ وَجَلَّ– فَيَلْقَى ثَوَابَهُ وَوَعْدَهُ.

{فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا}؛ يَعْنِي: فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً خَالِصًا لِلَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ– مُتَابِعًا لِسُنَّةِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَهُوَ الْعَمَلُ الشَّرْعِيُّ الَّذِي أُمِرَ بِهِ الْعَبْدُ.

{وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}؛ أَيْ: لَا يَقَعُ فِي الشِّرْكِ بِأَنْ يُشْرِكَ مَعَ اللهِ أَيَّ أَحَدٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، ﴿أَحَدًا﴾ كَمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: نَكِرَةٌ يَدْخُلُ فِيهَا كُلُّ أَحَدٍ، فَلاَ يَجُوزُ لِلْعَبْدِ أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ– أَيَّ أَحَدٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ.

وَفِي قَوْلِهِ –عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ الْعَمَلُ الصَّالِحُ مَا هُوَ؟!!

لَيْسَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ أَنْ تَتَقَرَّبَ إِلَى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بِمَا شِئْتَ وَبِمَا تَظُنُّهُ أَنَّهُ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَإِنَّمَا الْعَمَلُ الصَّالِحُ كَمَا سَبَقَ أَنَّهُ مَا اجْتَمَعَ فِيهِ شَرْطَانِ:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مُتَابِعًا لِسُنَّةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وَالْعَبْدُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ يَقِينًا أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِيَدِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَلاَ يَرْجُو أَحَدًا إِلَّا اللهَ، وَلَا يُعَلِّقُ قَلْبَهُ بِأَحدٍ إِلَّا بِاللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-؛ لِذَلِكَ يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلاَمِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَمَا رَجَا أَحَدٌ مَخْلُوقًا أَوْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ إِلَّا خَابَ ظَنُّهُ فِيهِ».

وَقَالَ أَيْضًا: «إِذَا تَعَلَّقَ بِالْمَخْلُوقِينَ وَرَجَاهُمْ وَطَمِعَ فِيهِمْ أَنْ يَجْلِبُوا لَهُ مَنْفَعَةً أَوْ يَدْفَعُوا عَنْهُ مَضَرَّةً فَإِنَّهُ يُخْذَلُ مِنْ جِهَتِهِمْ وَلَا يُحَصِّلُ مَقْصُودَهُ» إِلَى آخِرِ كَلاَمِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

ثُمَّ ذَكَرَ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الرَّجَاءَ ذَكَرَ التَّوَكُّلَ فَقَالَ: وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ: هُوَ الاِعْتِمَادُ عَلَيْهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ وَأَنَّ الْعَبْدَ يَسْتَسْلِمُ لِأَمْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَيَعْتَمِدُ عَلَيْهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- تَظْهَرُ فِيهِ مَعَانِي التَّوْحِيدِ وَيَظْهَرُ فِيهِ صِدْقُ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِاللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَهُوَ فَرِيضَةٌ وَعِبَادَةٌ يَجِبُ إِخْلَاصُهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ.

فَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ حَقِيقَتُهُ أَنَّ الْقَلْبَ يَتَعَلَّقُ بِاللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- مَعَ أَخْذِهِ بِالْأَسْبَابِ وَعَدَمِ اعْتِمَادِهِ عَلَيْهَا، التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- هُوَ أَنْ يَتَعَلَّقَ قَلْبُ الْعَبْدِ بِاللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- مَعَ أَخْذِهِ بِالْأَسْبَابِ وَعَدَمِ الاِعْتِمَادِ عَلَيْهَا.

لَا بُدَّ أَنْ نَفْهَمَ هَذِهِ الْأُمُورَ:

أَوَّلًا: أَنَّ قَلْبَ الْعَبْدِ مُتَعَلِّقٌ بِاللهِ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا وَأَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا يَعْنِي تَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِاللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَعْمَلُ بِالْأَسْبَابِ وَلَا يَأْخُذُ بِهَا، وَإِنَّمَا اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- أَمَرَنَا أَنْ نَأْخُذَ بِالْأَسْبَابِ، وَمَعَ ذَلِكَ إِذَا أَخَذْنَا بِالْأَسْبَابِ لَا نَعْتَمِدُ عَلَيْهَا بِمَعْنَى لَا نَظُنُّ أَنَّ

الْأَسْبَابَ هِيَ الَّتِي تُحَقِّقُ لَنَا النَّفْعَ أَوْ تَدْفَعُ عَنَّا الضُّرَّ، بَلْ هَذَا بِيَدِ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ –وَحْدَهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–.

وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– كَمَا يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ الْجَوْزِيَّة –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى– فِي كِتَابِهِ «الْفَوَائِدُ»:

«التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ نَوْعَانِ أَحَدُهُمَا: تَوَكُّلٌ عَلَى اللهِ فِي جَلْبِ حَوَائِجِ الْعَبْدِ وَحُظُوظِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ أَوْ دَفْعِ مَكْرُوهَاتِهِ وَمَصَائِبِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ.

وَالثَّانِي: التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ –فِي حُصُولِ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ وَالْجِهَادِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ».

قَالَ: «وَبَيْنَ النَّوْعَيْنِ مِنَ الْفَضْلِ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللهُ فَمَتَى تَوَكَّلَ عَلَيْهِ الْعَبْدُ فِي النَّوْعِ الثَّانِي حَقَّ تَوَكُّلِهِ أَيْ فِي نَوْعِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ وَالْجِهَادِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ كَفَاهُ النَّوْعَ الْأَوَّلَ تَمَامَ الْكِفَايَةِ وَمَتَى تَوَكَّلَ عَلَيْهِ فِي النَّوْعِ الْأَوَّلِ دُونَ الثَّانِي كَفَاهُ أَيْضًا لَكِنْ لَا يَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الْمُتَوَكِّلِ فِيمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ».

قَالَ: «فَأَعْظَمُ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ التَّوَكُّلُ فِي الْهِدَايَةِ وَتَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ وَمُتَابَعَةُ الرَّسُولِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–».

قَالَ الشَّيْخُ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى– كَمَا سَبَقَ: «وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

قَوْلُهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾؛ أَيْ: عَلَى اللهِ اعْتَمِدُوا.

وَهَذِهِ الْآيَةُ تُفِيدُ أَنَّنَا نَعْتَمِدُ عَلَى اللهِ وَلَا نَعْتَمِدُ عَلَى غَيْرِهِ.

فَإِنَّ الاِعْتِمَادَ عَلَى اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– هُوَ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ مِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي يَحْرِصُ عَلَيْهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ أَيْ: لَا تَتَوَكَّلُوا عَلَى غَيْرِهِ، فَالْمُسْلِمُ يُفَوِّضُ أَمْرَهُ إِلَى اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أَيْ: وَمَنْ يَعْتَمِدْ عَلَى اللهِ–عَزَّ وَجَلَّ– وَيَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فِي أَمْرِهِ دِينًا وَدُنْيَا فَإِنَّ اللهَ هُوَ حَسْبُهُ (حَسْبُهُ) بِمَعْنَى أَنَّ اللهَ–عَزَّ وَجَلَّ–هُوَ كَافِيهِ، فَمَهْمَا حَاوَلَ أَنْ يُؤْذِيَهُ مَنْ يُؤْذِيهِ مِنَ الْأَعْدَاءِ، فَمَا دَامَ أَنَّ الْعَبْدَ مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللهِ–عَزَّ وَجَلَّ– فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ شَيْءٌ –بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى– إِلَّا شَيْئًا قَدْ قُدِّرَ عَلَيْهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مَحْفُوفٌ بِالْحِفْظِ وَاللُّطْفِ وَالرِّعَايَةِ مِنَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–.

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «الِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَاللَّجْءُ إِلَيْهِ وَالدُّعَاءُ لَهُ، هِيَ الَّتِي تُقَوِّي الْعَبْدَ وَتُيَسِّرُ عَلَيْهِ

الْأُمُورَ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ». انْتَهَى.

لَكِنْ كَمَا سَبَقَ مَعَ مُرَاعَاةِ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ، وَأَيْضًا مَعَ مُرَاعَاةِ أَنْ لَا يَعْتَمِدَ عَلَى هَذِهِ الْأَسْبَابِ وَيَعْتَقِدَ أَنَّهَا تَنْفَعُ وَتَضُرُّ بِنَفْسِهَا؛ بَلِ الْعَبْدُ يَبْذُلُ الْأَسْبَابَ وَيَسْأَلُ اللهَ الْإِعَانَةَ وَالتَّوْفِيقَ وَالسَّدَادَ حَتَّى يَمْتَثِلَ أَمْرَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَحَتَّى يُحَقِّقَ مَعْنَى التَّوْحِيدِ، وَحَتَّى إِذَا أَتَى بِالتَّوَكُّلِ فَإِنَّ اللهَ-عَزَّ وَجَلَّ- يَنْصُرُهُ، وَإِنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- يُوَفِّقُهُ وَيُسَدِّدُهُ.

وَلِذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي حَوَائِجِ الدُّنْيَا عِنْدَمَا يَطْلُبُونَهَا مِنْ غَيْرِ اللهِ فَإِنَّهُمْ قَدْ لَا يُوَفَّقُونَ لَهَا، إِذَا كَانَتْ قُلُوبُهُمْ مُعَلَّقَةً بِغَيْرِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ- وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ قُلُوبُهُمْ مُعَلَّقَةً بِاللهِ - عَزَّ وَجَلَّ- فَإِنَّهُمْ -بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى- يُوَفَّقُونَ، وَلِذَلِكَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ- أَمَرَنَا بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ.

ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَالْخُشُوعِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾».

الرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ وَالْخُشُوعُ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْقَلْبِيَّةِ الَّتِي يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَصْرِفَهَا لِلَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–.

فَالرَّغْبَةُ: هِيَ طَلَبُ الْوُصُولِ إِلَى الشَّيْءِ الْمَحْبُوبِ.

وَالرَّهْبَةُ: هِيَ الْخَوْفُ مِنْ أَمْرٍ يُفْزِعُ الْمَرْءَ مِمَّا يُثْمِرُ الْهَرَبَ مِنَ الْأَمْرِ الْمُخَوِّفِ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ خَيْرًا وَفَّقَهُ لِاسْتِفْرَاغِ وُسْعِهِ وَبَذْلِ جُهْدِهِ فِي الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُمَا مَادَّتَا التَّوْفِيقِ، فَبِقَدْرِ قِيَامِ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ فِي الْقَلْبِ يَحْصُلُ التَّوْفِيقُ».

وَالْخُشُوعُ: هُوَ الذُّلُّ لِعَظَمَةِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ–، وَالْخُشُوعُ قَدْ يَكُونُ فِي الْقَلْبِ وَقَدْ يَكُونُ فِي الْجَوَارِحِ.

وَاللَّهُ – عَزَّ وَجَلَّ– أَثْنَى عَلَى عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وَأَثْنَى عَلَى أَنْبِيَائِهِ – صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ– حَيْثُ قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ﴾ – أَيْ: هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ وَهَؤُلَاءِ الصَّالِحُونَ– ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يَعْنِي: يَبْذُلُونَ كُلَّ مَا فِي وُسْعِهِمْ لِلْحُصُولِ عَلَى الْخَيْرَاتِ، وَعَلَى مَرْضَاةِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ– فَيَتَسَارَعُونَ وَيَتَسَابَقُونَ.

وَالْخَيْرَاتُ: الْمُرَادُ بِهَا الطَّاعَاتُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ– عَزَّ وَجَلَّ– بِهَا وَالَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ.

وَلِذَلِكَ هَذَا يَنْبَغِي أَنْ نَلْحَظَهُ دَائِمًا فِي النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ؛ أَنَّ الْحَثَّ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْحَثَّ عَلَى الطَّاعَاتِ إِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الطَّاعَاتُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ- بِهَا كَمَا قَالَ -عَزَّ شَأْنُهُ-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

إِذَنْ؛ كَانُوا هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَكَانُوا أَيْضًا مَاذَا؟! ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ يَدْعُونَنَا رَغَبًا: يَعْنِي يَدْعُونَنَا يَطْلُبُونَ الثَّوَابَ مِنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَهُمْ يَأْمَلُونَ مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ- الثَّوَابَ وَحُسْنَ الْمَآبِ وَالْخَيْرَ مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ-، ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أَيْضًا يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ أَعْمَالُهُمْ، يَخَافُونَ أَنْ يَكُونُوا مُقَصِّرِينَ مَعَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.

وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ لَا يَغْتَرَّ بِطَاعَتِهِ، وَأَنْ لَا يَغْتَرَّ بِصَلَاحِهِ، فَيَظُنُّ نَفْسَهُ أَنَّهُ مِنْ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ قَدْ وُفِّقُوا لِلْخَيْرِ؛ لَا.

لَا بُدَّ أَيْضًا مِنَ الْخَوْفِ؛ لَا بُدَّ يَخَافُونَ مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ- يَخَافُونَ مِنَ التَّقْصِيرِ، يَخَافُونَ مِنَ الْعِقَابِ.

﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ يَعْنِي أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ وَالصَّالِحِينَ كَانُوا خَاضِعِينَ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- مُتَذَلِّلِينَ لَهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

–، وَفِي ذَلِكَ كَمَالُ الْعِبَادَةِ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ كَمَالُ الْمَحَبَّةِ مَعَ كَمَالِ الذُّلِّ فَاللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– أَثْنَى عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فَيَنْبَغِي لِمَنْ دُونَهُمْ مِنَ الْعِبَادِ أَنْ يَمْتَثِلُوا مِثْلَ هَذِهِ الْحَالِ؛ الرَّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ وَالْخُشُوعَ إِلَى اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–.

ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾».

الْخَشْيَةُ: بِمَعْنَى الْخَوْفِ إِلَّا أَنَّ الْخَشْيَةَ فِيهَا مَعْنَى الْخَوْفِ بِصُورَةٍ أَدَقَّ، قَالَ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ لَمْ يَقُلْ: إِنَّمَا يَخَافُ اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ؛ لِمَاذَا؟!

قَالُوا: لِأَنَّ خَشْيَةَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– مَقْرُونَةٌ بِمَعْرِفَتِهِ وَعَلَى قَدْرِ الْمَعْرِفَةِ تَكُونُ الْخَشْيَةُ، وَلِذَلِكَ الْخَشْيَةُ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْقَلْبِيَّةِ الْعَظِيمَةِ وَهِيَ مِنْ أَوَائِلِ مَا يُرْفَعُ مِنَ الْأَرْضِ وَالْخَشْيَةُ مُثْمِرَةٌ عَنِ الْعِلْمِ.

وَلِذَلِكَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَبَيْنَ الزُّهَّادِ الَّذِينَ لَا عِلْمَ لَهُمْ؛ أَنَّ الْعُلَمَاءَ أَهْلُ الْخَشْيَةِ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ مَعْرِفَةٍ بِاللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، وَأَمَّا الزُّهَّادُ فَأَهْلُ خَوْفٍ إِذْ كَانَ زُهْدُهُمْ مَبْنِيٌّ عَلَى مُجَرَّدِ الْخَوْفِ لَا عَلَى الْعِلْمِ بِاللهِ –

عَزَّ وَجَلَّ- وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِهِ عَلَى أَدْنَاكُمْ».

فَاللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- يَقُولُ: ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ فَالْخَشْيَةُ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَلاَ تَخْشَوْا أَيَّ أَحَدٍ مِنْ دُونِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -.

لِمَاذَا؟!

- لِأَنَّهُ لَيْسَ بِيَدِهِمْ شَيْءٌ، إِنَّمَا الْأُمُورُ كُلُّهَا بِيَدِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَاللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- هُوَ أَهْلُ الْخَشْيَةِ هُوَ أَهْلٌ لِأَنْ يُخْشَى وَأَهْلٌ لِأَنْ يُتَّقَى - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وَقَدْ جَاءَتِ الْخَشْيَةُ فِي صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- كَمَا قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ أَيْ يَخَافُونَهُ وَيَحْذَرُونَهُ وَيَحْذَرُونَ عَذَابَهُ وَعِقَابَهُ وَسُخْطَهُ بِمَاذَا يَحْذَرُونَهُ؟! بِمُجَرَّدِ الْخَوْفِ؟!؛ لَا بِالْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ فَيَتَعَلَّمُونَ الطَّاعَاتِ فَيَعْمَلُونَ بِهَا وَيَتَعَلَّمُونَ الْأُمُورَ الَّتِي نَهَى عَنْهَا فَيَجْتَنِبُوهَا.

وَلِذَلِكَ أَثْنَى اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- عَلَيْهِمْ هَذَا الثَّنَاءَ الْعَطِرَ، بَلْ قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- كَمَا مَرَّ مَعَنَا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

ثُمَّ ذَكَرَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أَيْضًا فِي كِتَابِهِ قَالَ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فَمِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- عَلَيْنَا أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ مُتَعَلِّقًا بِاللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- مُتَوَجِّهًا إِلَيْهِ.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾وَلَعَلَّ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ «مِنَ اللهِ وَاجِبَةٌ».

ثُمَّ قَالَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- وَدَلِيلُ الْإِنَابَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾.

الْإِنَابَةُ: أَنَابَ إِلَى اللهِ إِذَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَالْإِنَابَةُ هِيَ الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَالْعَبْدُ يُنِيبُ وَيَرْجِعُ إِلَى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-لِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ قَلْبُهُ بِهِ، وَالْإِنَابَةُ أَيْضًا تَأْتِي بِمَعْنَى التَّوْبَةِ، فَالْعَبْدُ التَّائِبُ مُنِيبٌ إِلَى اللهِ لِأَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

يَقُولُ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- وَدَلِيلُ الْإِنَابَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾، فَهَذِهِ الْعِبَادَةُ الْعَظِيمَةُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- يَأْمُرُنَا بِهَا ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾؛ يَعْنِي: ارْجِعُوا إِلَى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بِقُلُوبِكُمْ، ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أَيْ بِجَوَارِحِكُمْ.

فَالْعَبْدُ يَجْمَعُ بَيْنَ الْإِنَابَةِ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، وَبَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّغْبَةِ كَمَا مَرَّ، فَهَذِهِ الْعِبَادَاتُ إِذَا امْتَلأَ قَلْبُ الْعَبْدِ بِهَا، زَادَتْهُ بَصِيرَةً وَإِيمَانًا وَيَقِينًا.

قَالَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَدَلِيلُ الاِسْتِعَانَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وَفِي الْحَدِيثِ: «وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ».

الاِسْتِعَانَةُ مَعْنَاهَا طَلَبُ الْعَوْنِ مِنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَالشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ذَكَرَ دَلِيلَهَا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ أَيْ وَلَا نَعْبُدُ أَحَدًا سِوَاكَ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ؛ أَيْ: وَلَا نَسْتَعِينُ بِأَحَدٍ سِوَاكَ.

فَهُنَا جَعَلَ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَصَّ مِنَ الْعِبَادَةِ الاِسْتِعَانَةَ لِعَظِيمِ فَضْلِهَا وَشَرِيفِ مَكَانَتِهَا، فَاللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِطَلَبِ الْعَوْنِ مِنْهُ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وَلِذَلِكَ الْعَبْدُ جَاءَ فِي الشَّرْعِ مَا يُرَغِّبُهُ فِي الْإِكْثَارِ مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لِأَنَّ الْعَبْدَ لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَلَّا يَغْتَرَّ بِقُوَّتِهِ وَلَا بِمَالِهِ وَلَا بِجَاهِهِ وَلَا بِمَنْصِبِهِ، وَإِنَّمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ مَهْمَا بَلَغَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا هُوَ فَقِيرٌ إِلَى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

كَمَا قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾، فَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا نِدَاءٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ غَنِيِّهِمْ وَفَقِيرِهِمْ، غَنِيِّهِمْ فِي الدُّنْيَا بِمَا

عِنْدَهُ مِنْ أَمْوَالٍ، وَفَقِيرِهِمْ فِي الدُّنْيَا الَّذِي لَا يَمْلِكُ شَيْئًا، كُلُّ هَؤُلَاءِ هُمْ فُقَرَاءُ إِلَى اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، وَالْفَقِيرُ إِذَا اسْتَغْنَى بِاللهِ فَهُوَ الْغَنِيُّ، وَالْغَنِيُّ إِذَا اسْتَغْنَى بِقُوَّتِهِ فَهُوَ الْفَقِيرُ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾.

وَلِذَلِكَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَلَّمَ ابْنَ عَبَّاسٍ وَعَلَّمَ الْأُمَّةَ مِنْ بَعْدِهِ أَيْضًا أَنَّهُ كَمَا ذَكَرَ الشَّيْخُ فِي الْحَدِيثِ: «وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»، يَعْنِي: إِذَا أَرَدْتَ الْعَوْنَ وَأَرَدْتَ التَّوْفِيقَ، فَاطْلُبِ الْعَوْنَ مِنَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ فَإِنَّهُ نَاصِرُكَ وَإِنَّهُ مُعِينُكَ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–.

فَإِنَّ الِاسْتِعَانَةَ تُطْلَبُ مِنَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ–، وَلَا بَأْسَ بِالِاسْتِعَانَةِ بِالْمَخْلُوقِ الْحَيِّ عَلَى أَمْرٍ قَادِرٍ عَلَيْهِ، فَلاَ بُدَّ أَنْ نُرَاعِيَ هَذِهِ الْأُمُورَ فِي الِاسْتِعَانَةِ بِالْمَخْلُوقِ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ الْمَخْلُوقُ حَيًّا، فَلَوْ كَانَ مَيِّتًا فَلاَ يَجُوزُ الِاسْتِعَانَةُ بِهِ حَتَّى نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَا يَجُوزُ الِاسْتِعَانَةُ بِهِ؛ فَهُوَ –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ– مَيِّتٌ فِي قَبْرِهِ لَيْسَ بِيَدِهِ شَيْءٌ –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ–، بَلْ قَالَ لِابْنِ عَبَّاسٍ كَمَا مَرَّ مَعَنَا سَابِقًا: «إِذَا اسْتَعَنْتَ

فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»، وَعُمَرُ كَانَ يَسْتَسْقِي بِالنَّبِيِّ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –أَيْ: بِدُعَائِه. فَلَمَّا مَاتَ النَّبِيُّ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – اسْتَسْقَى؛ أَيْ: طَلَبَ الدُّعَاءَ مِنْ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ.

فَكَذَا الاِسْتِعَانَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْحَيِّ، وَعَلَى أَمْرٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْحَيُّ؛ كَأَنْ يُعِينَكَ عَلَى بَعْضِ الْأُمُورِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، أَمَّا أَنْ يَكُونَ أَمْرًا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْحَيُّ؛ كَأَنْ يَسْأَلُهُ مَثَلاً «أَنْ يرْزُقَهُ الْوَلَدَ، أَوْ يَسْأَلُهُ أَنْ يَفْعَلَ لَهُ كَذَا وَكَذَا» مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ- فَهَذِهِ اسْتِعَانَةٌ مُحَرَّمَةٌ بَلْ شِرْكِيَّةٌ؛ لِأَنَّهُ أَشْرَكَ مَعَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ- فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ.

فَالاِسْتِعَانَةُ بِالْأَمْوَاتِ، وَكَذَا الاِسْتِعَانَةُ بِالْأَحْيَاءِ الْغَائِبِينَ، أَوْ بِالْأَحْيَاءِ الْعَاجِزِينَ عَلَى أَمْرٍ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ فَهَذِهِ شِرْكٌ، وَلَا يَجُوزُ صَرْفُهَا لِهَؤُلَاءِ.

قَالَ الشَّيْخُ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَدَلِيلُ الاِسْتِعَاذَةِ –قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾».

الاِسْتِعَاذَةُ: طَلَبُ الْعَوْذِ وَهُوَ الاِلْتِجَاءُ وَالاِعْتِصَامُ، وَالاِسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ تَلْتَجِئَ إِلَى اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ- وَتَعْتَصِمَ بِهِ وَتَطْلُبَ مِنْهُ أَنْ يُعِينَكَ فِي أَمرِكَ بِصَرْفِ مَا يَضُرُّكَ، وَجَلْبِ مَا يَنْفَعُكَ.

وَالاِسْتِعَاذَةُ أَدِلَّتُهَا كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ذَكَرَ الشَّيْخُ مِنْهَا ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ خِطَابٌ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

﴿قُلْ﴾ أَمْرٌ أَنْ يَقُولَ.

﴿أَعُوذُ﴾ أَيْ: أَعْتَصِمُ وَأَلْتَجِئُ بِمَنْ؟!

﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أَيْ: بِاللَّهِ–عَزَّ وَجَلَّ– الَّذِي هُوَ رَبُّ الْفَلَقِ، أَيْ: رَبُّ الصُّبْحِ.

وَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾كَذَلِكَ قُلْ يَا نَبِيِّي: أَعُوذُ بِكَ بِمَنْ؟! بِاللَّهِ ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

وَهَاتَانِ الْمُعَوِّذَتَانِ جاءَ فِي فَضْلِهِمَا أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ عَنِ النَّبِيِّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

فَالاِسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ– عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ، وَاللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– كَمَا فِي الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ أَمَرَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنْ يَسْتَعِيذَ بِفَالِقِ الْإِصْبَاحِ مِنْ شَرِّ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَالاِسْتِعَاذَةُ بِالْمَخْلُوقِ الْحَيِّ الْحَاضِرِ فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لَا مَانِعَ مِنْهَا.

وَالِاسْتِعَاذَةُ بِالْمَخْلُوقِ الْحَيِّ الْحَاضِرِ فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ امْرَأَةً عَاذَتْ بِأُمِّ سَلَمَةَ؛ زَوْجِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–يَعْنِي: الْتَجَأَتْ إِلَيْهَا أَنْ تُعِينَهَا وَأَنْ تُسَاعِدَهَا فَهَذَا، لَا بَأْسَ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِالْمَخْلُوقِ الْحَيِّ الْحَاضِرِ فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ.

قَالَ فِي «تَيْسِيرِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»: «الْمَخْلُوقُ يُطْلَبُ مِنْهُ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَيُسْتَعَاذُ بِهِ فِيهِ بِخِلَافِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ فَلَا يُسْتَعَاذُ فِيهِ إِلَّا بِاللهِ»، وَلِذَلِكَ كَمَا سَبَقَ، لَا يُسْتَعَاذُ بِالْأَمْوَاتِ، وَلَا بِالْغَائِبِينَ الْأَحْيَاءِ، وَلَا بِالْأَحْيَاءِ الْعَاجِزِينَ عَلَى أَمْرٍ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ فَإِنَّ هَذَا مِنَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ.

ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «وَدَلِيلُ الِاسْتِغَاثَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾».

الِاسْتِغَاثَةُ؟! مَرَّتْ مَعَنَا الِاسْتِعَانَةُ، وَمَرَّتْ مَعَنَا الِاسْتِعَاذَةُ.

وَالْآنَ يُبَيِّنُ الشَّيْخُ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى– الِاسْتِغَاثَةَ وَدَلِيلَهَا، فَيَقُولُ: وَدَلِيلُ الِاسْتِغَاثَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾.

مَا هِيَ الِاسْتِغَاثَةُ؟!

الِاسْتِغَاثَةُ: بِمَعْنَى: طَلَبِ الْغَوْثِ وَالْإِنْقَاذِ مِنْ أَمْرٍ شَدِيدٍ.

يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ: «الاِسْتِغَاثَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ الذُّعْرِ» وَلَا تَكُونُ أَيْضًا -كَمَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ- إِلَّا مِنْ أَمْرٍ مَهْمُومٍ مَكْرُوبٍ.

فَالاِسْتِعَاذَةُ؛ الْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الاِسْتِغَاثَةِ؛ أَنَّ الاِسْتِعَاذَةَ تَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَعْصِمَكَ وَأَنْ يَمْنَعَكَ وَأَنْ يُحَصِّنَكَ؛ وَأَمَّا الاِسْتِغَاثَةُ فَهِيَ أَنْ تَطْلُبَ مِنْهُ أَنْ يُزِيلَ مَا حَلَّ بِكَ مِنْ شِدَّةٍ، فَهَذَا هُوَ مَعْنَى الاِسْتِغَاثَةِ وَالْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الاِسْتِعَاذَةِ.

فَالاِسْتِغَاثَةُ: أَنْ تَطْلُبَ مِنْهُ أَنْ يُزِيلَ مَا حَلَّ بِكَ مِنْ شِدَّةٍ.

وَأَمَّا الاِسْتِعَاذَةُ: فَأَنْ تَطْلُبَ مِنْهُ أَنْ يَعْصِمَكَ، وَأَنْ يَحْفَظَكَ وَأَنْ يَمْنَعَكَ.

قَالَ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «دَلِيلُ الاِسْتِغَاثَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾» يَعْنِي: أَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- يُذَكِّرُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا كَانُوا قَرِيبِينَ مِنْ عَدُوِّهِمْ وَقِتَالِهِمْ كَانُوا يَسْتَغِيثُونَ بِاللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، أَيْ كَانُوا يَطْلُبُونَ مِنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ يُزِيلَ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ شِدَّةٍ فَيَطْلُبُونَ مِنْهُ الْعَوْنَ وَالنَّصْرَ.

قَالَ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وَذَلِكَ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ حِينَ كَانَ عَدَدُ الْمُشْرِكِينَ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ الْمُؤْمِنِينَ فَاسْتَغَاثُوا بِاللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– وَالْتَجؤُوا إِلَيْهِ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–.

وَهَذَا فِيهِ كَمَا سَبَقَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الاِسْتِغَاثَةَ تَكُونُ لِلَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ– فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– وَأَمَّا الاِسْتِغَاثَةُ بِالْأَحْيَاءِ الْحَاضِرِينَ الْقَادِرِينَ عَلَى الْإِغَاثَةِ فَهَذِهِ لَا مَانِعَ مِنْهَا وَهِيَ جَائِزَةٌ.

مَا الدَّلِيلُ؟!

الدَّلِيلُ كَمَا ذَكَرَ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– لَنَا فِي قِصَّةِ مُوسَى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ﴾.

ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «وَدَلِيلُ الذَّبْحِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾».

الذَّبْحُ: أَنْ يُرِيقَ الْعَبْدُ الدَّمَ لِلَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ– تَقَرُّبًا وَطَلَبًا لِلثَّوَابِ مِنَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وَدَلِيلُ الذَّبْحِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي﴾، ﴿وَنُسُكِي﴾ أَيْ: مَا أَذْبَحُهُ تَقَرُّبًا إِلَى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ﴿وَمَحْيَايَ﴾ أَيْ: كُلُّ مَا أَفْعَلُهُ فِي حَيَاتِي.

﴿وَمَمَاتِي﴾ أَيْ: مَا أَدَّخِرُهُ مِنْ عَمَلٍ بَعْدَ مَوْتِي.

﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كُلُّ ذَلِكَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْخَلْقِ وَالْمُلْكِ وَالْأَمْرِ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ يَعْنِي بِهَذَا الْإِخْلَاصِ وَهَذَا التَّوْحِيدِ وَنَفْيِ الشِّرْكِ أُمِرْتُ يَعْنِي أَمَرَنِي أَمْرًا لَازِمًا وَفَرْضًا وَاجِبًا.

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ يَعْنِي أَنَا أَوَّلُ مَنِ امْتَثَلَ هَذَا الْأَمْرَ وَهَذَا الْخَيْرَ الَّذِي أَمَرَنِي بِهِ رَبِّي -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

ثُمَّ قَالَ: مِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ».

لَعَنَ اللهُ: اللَّعْنُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ وَأَنَّ هَذَا الْفِعْلَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُغْضِبُ الرَّبَّ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فَمَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ فَإِنَّهُ مُتَهَدَّدٌ بِهَذَا الْوَعِيدِ، فَإِنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ

قَاصِدًا التَّقَرُّبَ لَهُ مِنْ صَنَمٍ أَوْ قَبْرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي الشِّرْكِ وَلَوْ كَانَ الْمَذْبُوحُ شَيْئًا حَقِيرًا.

فَالذَّبْحُ لِغَيْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- مِنَ الشِّرْكِ، وَأَمَّا مَا يَذْبَحُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ ذَبَائِحَ لِنَفْسِهِ إِكْرَامًا لِضَيْفِهِ وَيَذْبَحُهُ فِي الْأَفْرَاحِ فَهَذِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَادِيَّةِ الَّتِي لَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا مَا ذَكَرَهُ هُنَا مِنَ الذَّبْحِ لِلَّهِ، فَالذَّبْحُ لِلَّهِ هَاهُنَا؛ أَيِ: التَّقَرُّبُ لَهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- .

أَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ بَابِ الْعَادَاتِ وَمِنْ بَابِ مَا يُؤْكَلُ لِلْبَيْتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا مَانِعَ أَنْ يَذْبَحَ الْإِنْسَانُ وَلَكِنْ يَذْكُرُ اسْمَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، أَمَّا أَنْ يَذْبَحَ الذَّبِيحَةَ وَيَنْوِيَ بِهَا غَيْرَ اللهِ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الَّذِي عَنَاهُ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

ثُمَّ قَالَ: «وَدَلِيلُ النَّذْرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾».

النَّذْرُ: هُوَ أَنْ يُوجِبَ الْعَبْدُ عَلَى نَفْسِهِ أَمْرًا لَيْسَ بِوَاجِبٍ عَلَيْهِ كَأَنْ يَقُولَ: لِلَّهِ عَلَى أَنْ أُصَلِّيَ كَذَا لِلَّهِ عَلَى أَنْ أَذْبَحَ كَذَا وَكَذَا. فَهَذَا النَّذْرُ، وَالنَّذْرُ كَمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْبَخِيلِ.

فَالنَّذْرُ عِبَادَةٌ كَمَا ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ عِبَادَةٌ مَكْرُوهَةٌ يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَفِيَ بِهَا كَمَا قَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ.

النَّذْرُ عِبَادَةٌ وَاللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– أَثْنَى عَلَى هَؤُلَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾.

فَمَا وَجْهُ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ؟!

- قِيلَ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ أَوْفَوْا بِمَا أَمَرَهُمُ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– كَأَنَّهُمْ نَذَرُوا وَقِيلَ هَذَا ثَنَاءٌ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَنَا وَقِيلَ هُمْ أَلْزَمُوا أَنْفُسَهُمُ النَّذْرَ لِلَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ– تَقَرُّبًا إِلَى اللهِ لَيْسَ لِطَلَبِ أَمْرٍ مِنَ الدُّنْيَا لِأَنَّ النَّذْرَ الْمَذْمُومَ أَوِ النَّذْرَ الَّذِي هُوَ مَكْرُوهٌ هُوَ أَنْ يُعَلَّقَ النَّذْرُ عَلَى حُصُولِ شَيْءٍ؛ كَأَنْ يَقُولَ لِلَّهِ عَلَيَّ إِنْ شُفِيَ وَالِدِي أَوْ مَثَلاً إِنْ نَجَحَ ابْنِي أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ أَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا.

وَأَمَّا أَنْ يُلْزِمَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ الْعِبَادَةَ الْمَشْرُوعَةَ فَيَلْتَزِمُ بِهَا وَيَفِي بِمَا نَذَرَ فَهَذَا دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلاَ يَعْصِهِ».

قَالَ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَدَلِيلُ النَّذْرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾».

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾، أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَوْمًا عَسِيرًا بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالْعقَبَاتِ.

﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أَيْ: مُنْتَشِرًا وَكَانَ شَرُّهُ عَظِيمًا إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وَالنَّذْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَلَا يَجُوزُ صَرْفُهُ لِغَيْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-؛ فَمَنْ نَذَرَ لِغَيْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَقَدْ وَقَعَ فِي الشِّرْكِ، بَلْ يَعْتَبِرُهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ أَعْظَمُ مِنْ شِرْكِ الْحَلِفِ بِغَيْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «النَّذْرُ لِلْقُبُورِ أَوْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ كَالنَّذْرِ لِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ أَوْ لِلشَّيْخِ فُلَانٍ أَوْ فُلَانٍ أَوْ لِبَعْضِ أَهْلِ الْبَيْتِ أَوْ غَيْرِهِمْ؛ نَذْرُ مَعْصِيَةٍ لَا يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الدِّينِ، بَلْ وَلَا يَجُوزُ الْوَفَاءُ بِهِ».

فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ».

فَمَنْ نَذَرَ لِسَيِّدِهِ فُلاَنٍ أَوْ لِلشَّيْخِ الْفُلاَنِيِّ أَنْ يَفْعَلَ لَهُ كَيْتَ وَكَيْتَ مِنَ الْأُمُورِ، لَا شَكَّ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْوَفَاءُ بِهِ، بَلْ مَنْ نَذَرَ لِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ؛ لِأَنَّ النَّذْرَ عِبَادَةٌ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وَهُنَا يَكُونُ آخِرُ مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي صَرَّحَ بِهَا لِأَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَهَا قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وَمِنْهُ الدُّعَاءُ... إِلَى أَنْ قَالَ: وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا.

فَكَانَ النَّذْرُ هُوَ آخِرَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي ذَكَرَ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- دَلِيلَهَا عَلَى أَنَّهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي تُصْرَفُ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

إِذَنْ؛ مَرَّ مَعَنَا هَذَا الْأَصْلُ الْأَوَّلُ وَسَنَدْخُلُ إِنْ شَاءَ اللهُ فِي اللِّقَاءِ الثَّانِي فِي الْأَصْلِ الثَّانِي أَوْ فِي اللِّقَاءِ الْقَادِمِ فِي الْأَصْلِ الثَّانِي بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

أَسْأَلُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ يَنْفَعَنَا جَمِيعًا بِمَا سَمِعْنَا وَأَنْ يَكُونَ حُجَّةً لَنَا لَا حُجَّةً عَلَيْنَا.

هَذَا السَّائِلُ يَقُولُ: عِنْدَنَا الْكَثِيرُ مِمَّنْ يُسَمَّى بِالْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَاعْتِقَادُ النَّاسِ بِزِيَارَتِهِمْ وَالِاسْتِشْفَاءُ بِتُرْبَةِ قُبُورِهِمْ، وَلَكِنَّ الصَّحْوَةَ بَدَأَتْ تَصِلُ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَمْرُ الَّذِي -يَعْنِي يَقُولُ- نَوَدُّ أَنْ نَتَطَرَّقَ إِلَيْهِ هُوَ وُجُودُ كَمِّيَّةٍ هَائِلَةٍ يَعْنِي عَدَدٌ هَائِلٌ مِنَ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يُعَالِجُونَ الْأَمْرَاضَ بِالْأَعْشَابِ، وَلَكِنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يَدْرُسْ شَيْئًا فِي هَذَا.

هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ هَذَا يَتَوَارَثُونَهُ أَبًا عَنْ جَدٍّ وَاللَّفْظُ الْمُتَدَاوَلُ عِنْدَنَا هُوَ أَنَّا نَحْكُمُ فِي الْمَرَضِ الْفُلَانِيِّ وَكُلٌّ بِاخْتِصَاصِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَخَذَهُ أَبًا عَنْ جَدٍّ لَوْ عَالَجَكَ مِنْ ذَاكَ الْمَرَضِ فَقَطْعًا لَنْ يُعَاوِدَكَ ذَاكَ الْمَرَضُ بِعَيْنِهِ.

وَالْمُشْكِلُ لِكَثْرَتِهِمْ لَا نُفَرِّقُ مِمَّنْ لَدَيْهِ خِبْرَةٌ مِمَّنْ سِوَاهُ حَتَّى تَجِدَ أَنَّهُ يُقْبِلُ عَلَيْهِ الْمُتَدَيِّنُونَ. طَيِّبٌ عُمُومًا هَذَا السُّؤَالُ هُوَ سُؤَالٌ طَوِيلٌ جِدًّا أَنَا قَرَأْتُ بَعْضَهُ...

- هَذَا السَّائِلُ يَقُولُ: يُوجَدُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمَاكِنِ لَيْسَ فَقَطْ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ لِلْأَسَفِ الشَّدِيدِ، وُجُودُ الْقُبُورِ الَّتِي يُطَافُ حَوْلَهَا وَيُذْبَحُ لَهَا وَيُنْذَرُ لَهَا مِنَ الْقُبُورِ الَّذِينَ يُسَمَّوْنَ بِالْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

وَلَكِنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ النَّاسُ قَدْ فَهِمَتْ أَنَّ هَذَا شِرْكٌ وَأَنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ وَتَرَكُوا كَثِيرًا مِنْ هَذَا وَإِنْ كَانَ لَا يَعْنِي هَذَا الْكَلَامُ أَنَّنَا لَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَى

التَّوْحِيدِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ نُدَرِّسَ التَّوْحِيدَ وَأَنْ نَدْرُسَهُ وَأَنْ نَنْشُرَهُ حَتَّى وَلَوْ تَرَكَ النَّاسُ عِبَادَةَ تِلْكَ الْقُبُورِ.

- لِمَاذَا؟!

حَتَّى لَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ يَغْفَلُونَ فِيهِ عَنِ التَّوْحِيدِ فَيَقَعُونَ فِي خِلافِهِ، ثُمَّ يُذْكَرُ عِنْدَهُمْ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَكُونُ يَعْمَلُ الطِّبَّ وَيَدَّعِي أَنَّهُ يُعَالِجُ هَذِهِ الْأَمْرَاضَ، وَأَنَّهُ إِذَا عَالَجَ ذَاكَ الْمَرِيضَ أَنَّهُ لَنْ يَمْرَضَ مَرَّةً أُخْرَى.

وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ، فَنَقُولُ إِنْ كَانَ هَذَا الْمُعَالِجُ لِهَذَا الْمَرَضِ، عِنْدَهُ خِبْرَةٌ وَعِنْدَهُ دُرْبَةٌ وَتَلَقَّى هَذَا الْعِلاَجَ وَكَيْفِيَّتَهُ عَنْ أَهْلِهِ، فَلاَ بَأْسَ أَنْ يُعَالِجَ النَّاسَ، تَدَاوَوْا بِعِبَادِ اللهِ وَلَا تَدَاوَوْا بِالْحَرَامِ، وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَجْزِمَ بِأَنَّهُ يُعَالِجُ النَّاسَ مِنَ الْمَرَضِ وَأَنَّهُ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِيَدِ - اللهِ عَزَّ وَجَلَّ -.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ يُعَالِجُ النَّاسَ وَهُوَ غَيْرُ مُتْقِنًا لِهَذِهِ الصَّنْعَةِ أَوْ هُوَ جَاهِلٌ لِهَذِهِ الصَّنْعَةِ وَإِنَّمَا مُجَرَّدُ أَنْ يَأْخُذَهُ أَوْ يَدَّعِيَ هَذِهِ الصَّنْعَةَ لِأَنَّ أَبَاهُ وَجَدَّهُ كَانَا يَعْمَلاَنِ فِيهَا فَهَذَا لَا يَجُوزُ.

فَإِنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَدْ بَيَّنَ أَنَّ مَنْ مَارَسَ الطِّبَّ وَهُوَ لَا يَعْلَمُهُ أَنَّهُ آثِمٌ، فَلاَ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَعَامَلَ بِالطِّبِّ أَوْ أَنْ يَتَعَامَلَ بِالْأَعْشَابِ وَهُوَ يَجْهَلُ كَيْفِيَّةَ الْعِلاَجِ بِهَا، فَإِنَّهُ لَوْ عَالَجَ أَحَدًا فَهُوَ آثِمٌ، لِأَنَّهُ أَقْدَمَ عَلَى أَمْرٍ بِلاَ عِلْمٍ، فَلَوْ عَالَجَ أَحَدًا وَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى تَلَفِهِ أَوْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى زِيَادَةِ مَرَضِهِ فَإِنَّهُ آثِمٌ.

وَأَمَّا كَوْنُهُ أَعْشَابًا فَإِنْ كَانَتِ الْأَعْشَابُ مَعْرُوفَةً وَكَانَتْ أَعْشَابًا مِنَ النَّوْعِيَّاتِ الَّتِي يَنْتَفِعُ بِهَا النَّاسُ فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، فَإِنَّ بَابَ الطِّبِّ كَمَا ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ مَبْنِيٌّ عَلَى التَّجْرِبَةِ وَاسْتِعْمَالِ الْأُمُورِ الْمُبَاحَةِ، فَإِنْ ثَبَتَ أَنَّ بَعْضَ الْأَعْشَابِ يَنْفَعُ فِي بَعْضِ الْأَمْرَاضِ، فَلاَ مَانِعَ مِنْ ذَلِكَ، إِنْ ثَبَتَ لَدَى أَهْلِ الْخِبْرَةِ وَأَهْلِ الاِخْتِصَاصِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.